المجتمع الشنقيطي التقليدي:
قراءة في إشكالية السلطة:

عبد الوهاب ولد محفوظ
جامعة انواكشوط
كلية الآداب والعلوم الإنسانية
قسم الفلسفة

لقد احتلت إشكالية السلطة، كاحتكار للعنف وممارسة له بطريقة شرعية، في المجتمع الموريتاني التقليدي مكانة بارزة في الحياة السياسية التي كانت تستجيب في أجلى صورها لانصهار وانشطا ر متكررين في جو من "السيبة" ناتج عن غياب سلطة مركزية تحتكر العنف وتسهر على حراسته مما شكل مجالا استراتيجيا للصراع المشرع من طرف السلطة الأقوى التي تحظى بها القبائل المغفرية والمتمغفرة[1] صاحبة السلطة الزمنية المسيطرة على الرغم من درجة تنظيمها الهشة ووضعها الاقتصادي الهزيل والانقسامات التي تظهر كل يوم أكثر داخل صفوفها، مما وقف عائقا أمام تأسيسها لدولة مركزية، وكل ما استطاعت القيام بها هو تأسيس بعض الإمارات المتنافسة والمتعارضة فيما بينها والتي ظهرت بعد ما تطورت سلطة رؤساء بعض القبائل إلى ما يشبه نظاما أوليغارشيا يتألف من حاشية الأمير ويسمو على مجلس الجماعة، مشكلا بذلك "قائدية بدون قائد"[2] في إطار بنية اجتماعية معقدة تستجيب لتراتيبية صارمة يشغل قمتها السيف والكتاب ثم الحرف المتعددة الأخرى في ظل مجموعة من قبائل البادية المتصارعة على السلطة والغنيمة فكيف كانت العلاقة بين السيف والكتاب الممثلان للسلطتين الزمنية والايديولوجية في هذا الحيز المشحون بالاضطراب والصراع على السلطة؟

وإلى أي حد وفقا في الاستيعاب المتبادل بينهما؟

---

[1] المتمغفرة: هي القبائل ذات الشوكة التي ليست من أصل مغفري.

[2] Ould Cheikh(Abdelwedoud)" Une caidalite sans caïd" 15 pages , Bulletin Economique et Social du Maroc.N°159-160-161.(en Hommage a Paul Pascou) publié par la société d'études économiques , sociales et statistiques, p 183.

لقد كان من النتائج الفعلية لحرب شربه[1] الدائرة بين أصحاب الشوكة والزوايا في منطقة الكبلة[2] بروز نظام أميري لدى بعض القبائل المحاربة بعد عملية مخاض عسيرة نشأ جراءها ضرب من العنف والسيطرة بالغ التأثير في الحياة الفكرية والاجتماعية السياسية والاقتصادية للمجتمع المحلي، مما مكن هذه السلطة صاحبة الشوكة من فرض بعض المغارم لتأمين جانبها المادي كضرائب منتظمة تساهم في تدعيم سلطتها الاقتصادية والسياسية في مجتمع يضم شرائح تابعة كثيرة تحتاج إلى الاحتضان المادي من ريع هذه المغارم والمداراة[3] التي ظهرت كمورد اقتصادي استحقته السلطة الزمنية بفضل تفوقها العسكري، وهو ما كان له وقع شديد على بعض القبائل ذات السلطة الأيديولوجية من الزوايا لتأثيره البالغ على اقتصادهم الرعوي والتجاري "لأن حسان نصيبهم من المداراة في السنة كثير..."[4].

غير أن هذا الانتصار الذي حققته السلطة الزمنية من أصحاب الشوكة، وما نجم عنه من قيام امارات المغفرية والمتغفرة كإيدوعيش مثلا قد عجل بتعريب شرائح عريضة من بلاد شنقيط[5] وسادت لغتهم الحسانية فكانت أداة توحيدية للمجتمع العربي الشنقيطي إلى جانب العامل الديني

---

[1] شربه: ذكر محمدن ولد باباه في تحقيقه لكتاب اليدالي "شيم الزوايا"، بيت الحكمة – قرطاج، 1990، ص:99، أن معنى شربه الاصطلاحي هي الحرب التي قامت في منتصف القرن 11هـ/17م، بزعامة الإمام ناصر الدين، استهدفت بلاد السودان فيما وراء النهر، ففتحوا البلاد سرعة مذهلة وأقاموا سلطتهم عليها، وفي غمرة الظفر والانتصار ثار عليهم المغافرة بخلع بيعتهم للإمام و أوقدوا نارا للحرب "انتهت بهزيمة الزوايا وانكسار شوكتهم وإبادة جيلين من خيرتهم".

لكن هذه المعلومات المتعلقة بأسباب الحرب ليست صحيحة، وإن كنا لا نستطيع أن نحسم في شأن هذه الحرب التي اختلطت فيها الحقيقة بالخيال لدرجة أصبح معها كل واحد يؤول أسبابها لصالحه على الرغم من الإجماع على نتائجها، إلا أننا نرى في رواية ولد السعد (محمد المختار): حرب شربه- أزمة القرن 17 في الجنوب الغربي الموريتاني- المعهد الموريتاني للبحث العلمي، 1993، سندا قد يركن إليه في هذا الشأن والذي يقول إن "المغافرة لم يعترفوا بإمامة ناصر الدين وكانوا بمعزل في أمكزر فجاء جابي زكاته لببه (بفتح الباء الأولى وتشديد الثانية مع الفتح) اصكاعي حليف اندكسعد شيخ تاشدبيت (قبيلة) وأراد أخذ الزكاة لإدخالها في بيت مال المسلمين الذي كان ناصر الدين يريد إنشاءه فرفض اندكسعد... وساق إبله... واحتمى بهدّي..." للمزيد من المعلومات يمكن الرجوع لولد السعد نفس المرجع، (ص.ص:139-140).

[2] الكبلة: منطقة في الجنوب الغربي الموريتاني.

[3] المداراة: نوع من المهادنة تتم ترجمته في علاقات مادية لصالح السلطة المسيطرة قصد الانفكاك من غدرها.

[4] محمد المامي (الشيخ): كتاب البادية، مخطوط بالمعهد الموريتاني للبحث العلمي، ص:186.

[5] ولد الحسن (أحمد جمال): "حركة ناصر الدين ومنزلتها من تاريخ الإسلام في غرب إفريقيا" عدد الصفحات11، حوليات كلية الآداب- جامعة نواكشوط، عدد1، 1989، ص:12.

الذي شكل الأساس المنطلقي لسلطة الزوايا الأيديولوجية وجانبا تشريعيا مهما لسلطة بني حسان الزمنية.

لقد ساهمت حركة ناصر الدين ومن قبلها أوائل المرابطين، المؤسسين للخطاب الجهادي في شنقيط، في تعميق الوعي الديني وروح الجهاد في معظم أوساط المجتمع العربي والمجتمع الزنجي الذي انتقل إسلامه "من إسلام الملوك إلى إسلام الشعوب، وذلك أن السلالات المالكة كانت تعلن إسلامها بانتظام منذ القرن 5هـ/11م على الأقل بينما كان إسلام الرعايا على سطحيته مشوبا أحيانا كثيرة بأضغاث من وثنية"[1]، كما رسخت هذه الحركات الجهادية مفهوم الإمامة لدى بعض الفقهاء كحل أساس لتوحيد المجتمع الشنقيطي تحت ظل سلطة مركزية شرعية قادرة على نشر العدل والمساواة، مادامت سلطة حسان عاجزة عن تحقيق ذلك في مجتمع إسلامي.

يقول الكصري محمد بن المختار الولاتي في معرض حديثه عن حكم أصدره في شأن السيبة ما نصه: "وقد علمتم مما سلف من كلام أنه لا قصاص في هذه البلاد السائبة، إذ لاسلطان فيها يقيم الحدود والحكام، وليس بها إلا دية المقتول عمدا على قاتله وعاقلته عن القصاص"[2]، وهو اتجاه متجذر لدى مجموعة من الفقهاء والمشايخ الدينيين أمثال الشيخ سيدي محمد بن الشيخ سيد المختار الكنتي في "الرسالة الغلاوية" التي تعتبر هجوما روحيا واجتماعيا على من اعتبرهم خارجين عن الإمامة العظمى حين قال: "...وقل أهل الدين وأرباب النيات والعقائد الصالحات في هذا الزمان، والصواب قتالهم متى كان في الإمام شجاعة وغريمة"[3]، وهي لعمري رسالة غالت في طرحها العاطفي تجاه الزوايا أكثر من الطرح السني الصحيح حسب علمنا، وذلك أن أصحاب الشوكة لا يمكن رميهم بالردة والخروج عن الإسلام كلما جعلوا من العنف خطاب رسميا لتعزيز سلطتهم في أرض يغيب فيها احترام السلطة في ذلك الوقت، ولكن يجوز قتالهم من باب الدفاع عن النفس لا غير.

أما الشيخ محمد المامي البركلي الذي ناهض كذلك سياسة العنف والسيبة، فنجده أكثر اعتدالا حين قال في معرض حديثه عن إمارة الترارزة أيام حكم محمد الحبيب المستقر نسبيا، ما

---

[1] ولد الحسن (أحمد جمال): نفسه.

[2] ابن المختار الكصري الولاتي (محمد): نوازل الكصري، مخطوط بالمعهد الموريتاني للبحث العلمي، ج2، نواكشوط، موريتانيا.

[3] ابن الشيخ سيد المختار الكنتي (سيدي محمد): الرسالة الغلاوية، مخطوط بالمعهد الموريتاني للبحث العلمي، نواكشوط، موريتانيا، ص:92.

نصه: "...إن قلت جماعة بني حسان تقوم مقام الإمام لأنها متغلبة، قلنا ذلك لو اتفقت كلمتهـا ... فلا حيلة إلا المداراة"[1].

أما الاتجاه الآخر من الفقهاء فيقف من السلطة الحسانية موقف المـتحفظ، إذ يعتبـرونهم متغلبين وتجب طاعتهم ومن أشهر ممثلي هذا الاتجاه محنض بابه بن عبيد الديماني، الذي تـولى القضاء في عهد الأمير محمد الحبيب، حين قال في معرض جوابه عن حكم مصـالحة حسـان للنصارى: "... إنهم معاهدون، لأن المتغلب تعتبر أحكامه وتلزم، فإن الإمامة تثبت لمن تغلـب، وإن لم يستوف شروطها، وتجب طاعته ولو كان عبدا حبشيا..."[2]، ثـم موقـف الشـيخ سـيديا الانتشايتي الإيبيري في معرض حديثه عن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر حين قـال: "... فمن تصدى في هذا الزمان لإقامة الدين والدعاية إلى سبيل المهتدين، ثم رام أن يحمل الناس على إظهاره... دون إمام تجمع إليه الكلمة وتقوى به الصولة ويشتد به ساعد الحـق... فقـد تصـدى لإثارة فتنة تستباح فيها الحرمة وتراق فيها الدماء وتنهب فيها الأموال من غير فائدة"[3].

وهكذا فقد اتضح مما تقدم أن الفتاوي التي كانت تتداول في المجتمع الموريتاني التقليدي كانت تتجاوز الإطار الفقهي لتبلور لها موقفا من السلطة وممارستها، لكن يتعين علينا أن نعـرف بالمقابل أن هذه السلطة السياسية والعسكرية المتمثلة في الأمراء وشيوخ القبائل ذات الشوكة لـم تكن بعيدة من هذا الفضاء الديني الذي استثمره الزوايا لصالحهم، بل كانت تعمل على احتضـانه عن طريق احتضان شخصيات لها معرفة بالشريعة والعقيدة (علماء وفقهاء) تكمن مهمتها في سد الثغرات التي تحصل بين النموذج النظري وبين الواقع السياسي أو على الأقل تبحث لهـا عـن مخرج نظري شرعي، وهو ما يؤدي مباشرة إلى الكشف عن الطابع الأيديولوجي للإسلام وكـذا الكشف عن طبيعة ووظيفة هذه الشريحة تجاه المجتمع والسلطة من جهة أخرى.

غير أن ما يظهر التخلخل في هذا الإطار الديني والسياسي بشكل واضح فـي المجتمـع الشنقيطي/ موضوع الدراسة/ هو غياب نظام مركزي يحتكر السلطتين الدينية والسياسية لصـالح الأمة مما أدى بالخطاب الفقهي في هذا المجتمع أن يظهر، خصوصا في موقفـه مـن السـلطة، محصورا في إطار قبلي وجهوي ضيق معللا ذلك "بالرجوع إلى المقاصد المصـلحية القاضـية بوجوب الحفاظ على الأنفس والأموال والأعراض، التي هي المقصد من الشريعة سواء من جهة الوجود، أو من جهة العدم، والذي لن يتأتى في ظل غياب السلطان المركزي إلا بـالركون إلـى

---

[1] الشيخ محمد المامي: كتاب البادية، مخطوط سبق ذكره.

[2] ابن عبيد (محنض بابه): أجوبة محنض بابه، مخطوط بالمعهد الموريتاني للبحث العلمي، ص:23.

[3] الشيخ سيديا: الميزان القويم والصراط المستقيم، مخطوط، بنفس المعهد، ص:3.

حصن القبيلة وحماها"[1]، ذلك أن السند الذي ركن إليه هؤلاء الفقهاء والعلماء هو كونهم يعتبرون جماعة القبيلة في مثل هذه الظروف بالذات، مرادفا للجماعة الشرعية[2] ذات الدلالة

المرسومة في الاصطلاح الشرعي الإسلامي التي تقضي بأن "يد الله مع الجماعة"[3]، وأن "الذئب إنما يأكل من الغنم القاصية"[4].

هذا الجو السائب إذن هو الذي برر كون فقهاء كل قبيلة (زوايا في الغالب) يتكلمون باسم جماعة المسلمين في قبيلتهم التي يترأسها شيخ قبلي كإمام محلي، خصوصا إذا لم تكن تابعة بشكل مباشر لنظام أميري، وهو الجو الذي برر أيضا ردود الأمراء عليهم على أساس شرعي من طرف فقهاء وعلماء الإمارات الرسميين إن لم يكونوا سيحاولون احتضانهم بطرق سلمية أو إلزامية واضحة. إنه جو تفرقت فيه الكلمة وغابت فيه السلطة بشكل ظهر على الفتاوي والمعاملات بصورة أو بأخرى.

غير أن هذا التعارض الذي يبدو أقرب إلى التنافر بين بني حسان والزوايا يخفي تناغما داخليا يعمل على إعادة إنتاج التكامل. فلكأنه اختلاف يهدف إلى الائتلاف أو تفاصل يهدف إلى التواصل، أو بتعبير أدق: صراع يبحث عن ذاته في خضم المتناقضات، وحوار ينتج من صراع الأضداد.

في هذا الإطار المتوتر شكل مفهوم "كرامة الأولياء" "البركة" و"التزبوت"[5] الذي عمل الزوايا على ترويجه واستغلاله كسلاح رمزي ونفسي ضد المحاربين (أصحاب الشوكة)، شكل إذن منطقة محذورة خولت لهم تحقيق التوازن الوظيفي مع السيف، كما أسست قاعدة لتبادل المواقع القيادية بين السلطتين الزمنية والأيديولوجية لوضع حد للعنف المنبعث من الطبيعة والإنسان، أو لتصبح مصدر رخاء أمني أو ملاذا أيديولوجيا ضد العنف العسكري والطبيعي ومصدرا لاستمداد القوة الروحية والانتصار الدنيوي والأخروي عند ما صوحبت هذه البركة والكرامات بالزهد في معظم الأحيان الذي يعمل على تغليب الجانب السلمي على العنف والقوة، ولعل هذا ما يبرر في نظرنا الأعمال التي قدمها ستيوارت Stewart حين قام بتطبيق ملاحظات

---

[1] ابن البراء (يحي): الفقه والمجتمع والسلطة، دراسة في النظر الاجتماعي السياسي للفقيه الموريتاني بين مشمول أهل القبلة وآصرة أبناء القبيلة، المعهد الموريتاني للبحث العلمي، نواكشوط، 1994، ص:63.

[2] المصدر نفسه.

[3] ورد هذا الحديث في سنن الترمذي (الفتن/).

[4] ورد هذا الحديث في سنن النسائي (إمامة/48)

[5] التزبوت: مفهوم محلي يدل على الانتقام الإلهي الذي يصيب الظالم كردة فعل ربانية وانتصار للمظلوم خصوصا إذا كان من عباد الله الصالحين.

كيلنير حول الأطلس الكبير بالمغرب، عند ما أبرز هذا الأخير التباين والتكامل القائمين بين سلطة الصلحاء وسلطة القادة "اللائكيين" أي مسالمة "أغرامن" وواجب الثأر لدى القبائل "اللائكية" وهو ما طبقه ستيوارت على النظام الاجتماعي والسياسي للبيضان في مساهمة له في الكتاب المشترك "العرب والبربر Arabs aud Berbers" الذي أشرف كيلنير نفسه على نشره، يقول عبد الودود ولد الشيخ في هذا الصدد: "فاستيوارت الذي ندين له بأطروحة هامة حول الشيخ سيديا الكبير، لم يستطع أن يختزل دور قبائل الزوايا في نشاط الوساطة الذي يؤسس المنزلة السياسية لأغرامن، وذلك نتيجة لوزنهم الاقتصادي والديموغرافي، وهكذا مدد مبدأ التقابل التكاملي إلى المجموعتين المكونتين لقبائل حسان والزوايا (مهارة ومسالمة الزوايا تكمل عنف المحاربين، كما أن حاجة الإنتاج تستدعي حاجة الحماية"[1].

غير أن ما يعاب على استيوارت هنا وكيلنير هناك، هو رؤيتهما إلى الشريحتين المتكاملتين كمجموعتين انقساميتين تمتازان بالترابط والتنافس دون أن يضعا في الاعتبار وجود سلطات زمنية تتجاوز وظيفتها السياسية الآليات الانقسامية ولا تتأثر بالانشقاقات الداخلية العابرة، كما أن القبائل التي وصفاها باللائكية في كلا المجتمعين ليست بعيدة عن الدين بل تستمد شرعيتها منه وتتخذه كأساس حتى في قراراتها السياسية والعسكرية، وكدليل مادي على ذلك ينبغي أن نتذكر أن حرب "شربيه" التي شكلت الأساس المنطلقي للصراع بين أصحاب الشوكة والزوايا في المجتمع الشنقيطي منتصف القرن17 بين الأمير هدي بن أحمد بن دمان أمير الترارزة والولي ناصر الدين، قد رخصت منذ البداية لصاحب السلطة الأميرية من طرف الفقيه عبد الله بن المختار الذي قلبت فتواه قاعدة "التوازن" السلطوي لصالح بني حسان بعد أن تمكن هدي من حسم التنافس على الغنيمة والسلطة مع الصلحاء بدعم ديني ملموس من الفقهاء كما أن اعتماد محمد شين الأمير تكانت (وسط البلاد) على فتاوي سيدي عبد الله ولد الحاج إبراهيم واتخاذه كقاض للإمارة ومشرع قد يساهم في تحطيم أطروحة اللائكية لدى القبائل ذات الشوكة التي يروج لها الانقساميون ويتخذونها كأساس، ونفس المر نجده لدى قبيلة أولاد الناصر في الحوض الغربي حين طلب شيخها عثمان ولد بكار من صالح ولد الرشيد كعالم وقاض من أعيان القبيلة أن ينظر في شأن بعض التهديدات التي تصدر عن إمارة أولاد أمبارك المجاورة، وما إذا كان يجوز التأهب لها عسكريا والرد عليها بالمثل أم لا؟ وغير ذلك كثير...

إن الجانب الآخر من التحليل الانقسامي في شأن مسالمة الزوايا مقابل لائكية حسان لا يقل شططا عن الجانب أو الشق الأول، ذلك أن التاريخ الجهادي وتاريخ الرباطات الإسلامية في

---

[1] ولد الشيخ (عبد الودود): القرابة والسلطة، ج2، ترجمة السيد ولد اباه، حوليات كلية الآداب والعلوم الإنسانية جامعة نواكشوط، عدد4، 93-1994.

المغرب الأقصى وشنقيط كان دائما حاضرا في القاموس السياسي لهذه النخب الدينية بدرجة تشهد على قوة شكيمتها وعنفها في إنتاج وإعادة إنتاج رسالتها الجهادية التي تعمل على تشريع خطابها السياسي السلطوي والإيديولوجي في خريطة سياسية ممزقة تفتقر إلى إمامة إسلامية جامعة، ولإثبات هذا التاريخ الجهادي الذي انقلب في مجتمع شنقيط إلى تاريخ قوَوِي[1] يبحث عن الذات في غمرة الصراع، نذكر مجموعة من الوقائع دارت بين الزوايا وأصحاب الشوكة وكذا بين الزوايا أنفسهم منها على سبيل المثال لا الحصر:

أولا: بين الزوايا وأصحاب الشوكة[2]:

-أولاد بالسباع وإمارة أولاد يحي بن عثمان.

-أولاد بالسباع وإمارة إيدوعيش.

-الأغلال ومشظوف، وغير ذلك كثير.

ثانيا: بين قبائل الزوايا أنفسهم[3]:

-تندغه ومدلش في القرن 9هـ أيام قدوم تشمشه، الأغلال وتجكانت، لمحاجيب وإيديلب، تنواجيو والأغلال، تجكانت وأهل سيدي محمود، إيدوعلي والأغلال، أهل سيدي محمود وكنته، أولاد بالسباع وأولاد أبييري، تحكانت وكنته، تجكانت وإيدغزينبو، إجيجبه وأولاد أبييري، أولاد أبييري وتندغه، إيداوعلي وإيدابلحسن، نزاعات أهل بارك الله وأهل بوحبيني على المياه، وغير ذلك من النزاعات والحروب التي تحطم الطروحة الانقسامية وما تنطوي عليه من محاولة للفصل والتفريق بين أهل الشوكة والزوايا الذين يتقاسمون نفس الأطر المرجعية وما تعج به من ثقافة إسلامية موحدة وطباع بدوية تشرع الثأر ومبدأ الدفاع عن النفس.

---

[1] قووي: نسبة إلى القوة، نقول: سلطوي نسبة إلى السلطة مثلما نقول قووي نسبة إلى القوة.

[2] النحوي (الخليل): بلاد شنقيط المنارة والرباط، تونس 1987، ص.ص:102-103. لكننا نرى أن بعض القبائل التي يضعها البعض في خانة الزوايا تعتبر نفسها ذات شوكة رغم رأسمالها الأيديولوجي مثل أولاد بالسبع وبعض القبائل الأخرى المذكورة في هذا التصنيف، مما يظهر أن الشوكة سطلوبة من طرف الجميع في غياب سلطة مركزية.

[3] نفس المصدر السابق.